الاثنين 24 يناير/ كانون الثاني 2022 م 21 جمادى الآخرة 1443 هـ ◻ العدد 2702 السنة الثامنة
Monday 24 January 2022

العربي الجديد

هوامش

يعتبر مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء أكبر مسجد في المغرب، والثالث في أفريقيا والثالث عشر في العالم، وهو صرح معماري فريد تم تشييده على مياه المحيط الأطلسي

يتميّز معمار مسجد الحسن الثاني بقدرة هائلة على خطف عيون الناظرين (Getty)

مسجد الحسن الثاني

هندسة معمارية أندلسية تُلامس السماء

الدار البيضاء ـ **أشرف الحساني**

لم يحلم المَغاربة يوماً أن تشهد مدينة الدار البيضاء خلال التسعينيّات تشييد وإقامة أكبر مسجدٍ في المغرب، هو اليوم الثالث في أفريقيا والثالث عشر في العالم. صرحٌ معماريّ مغربيّ مُتفرّد تم تشييده على مياه المُحيط الأطلسي، إذ يبدو في صُوَره المُتعدّدة وكأنّه يحرس المدينة خوفاً عليها من التحديث والتعمير. لذلك فلا غرابة أن يكون المسجد أيقونة شامخة في وجه التسليع الاقتصادي، الذي يجعل مدينة الدار البيضاء وفضاءاتها مجرّد مساحاتٍ تجارية قابلة للاكتساح العمراني، من دون أن يُفكّر أعيانها يوماً في إعادة بناء حدائق تراثية وتشييد مكتباتٍ تاريخيّة وترميم مبانٍ وأقواس ومقاهٍ لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المغرب. على هذا الأساس، يُعطي مسجد الحسن انطباعاً أوّلياً حول ضرورة وأسباب تشييد تحفةٍ معماريةٍ تحرس المدينة وتُرمّم هواجسها السياحية وتُؤسّس تاريخياً، بما يتماشى مع جوهر المدينة وذاكرتها في عيون كلّ من أحبّها.

ورغم أنّ المسجد قد تمّ العمل عليه ليل نهار لاستكمال عملية البناء ضمن المدّة التي أرادها الملك الراحل الحسن الثاني إهداءً لروح والده الملك الراحل محمد الخامس، فإنّ ظروف ومُدّة البناء لم تتمّ وفق الطريقة التي خُطّط لها. فتم تأجيل عملية البناء إلى عام 1986 حين وضع الحسن الثاني حجر الأساس، واعتمد طاقمين، كلٌّ واحدٍ يضم آلافاً من العمّال والمهنيين والحرفيين، الذين قدموا من مُختلف المُدن المغربيّة واشتغلوا بشكلٍ جماعيّ على بناء المسجد وتزويقه وجعلً جماله أسطورياً تسرح فيه روح الزائر، وذلك إلى حدود عام 1993 وتزامناً مع المولد النبوي الشريف، حين دشّن الملك المسجد وخطّ مساره وطريقة تسييره. وهكذا، أضحت للمسجد الذي كلف بناؤه نحو 500 مليون دولار أميركي مؤسّسة تابعة له تُعرف بـ «مؤسّسة الحسن الثاني» وتضمّ العديد من الفضاءات الدينية والثقافية التي تخدم سكّان مدينة الدار البيضاء وتُنعش الجانب السياحي للمدينة ويوميّاتها.

صمّم مسجد الحسن الثاني المُهندس المعماري الفرنسيّ الشهير ميشيل بانسو (1924-1999)، وهو من أبرز المُصمّمين الذين عاشوا بمدينة الدار البيضاء وعُرفوا باهتمامهم الكبير بالحضارة العربيّة الإسلامية، لا سيما على مُستوى تمثّلاتها داخل العمارة المعاصرة. فكان تشييد المسجد يقوم على بنية تاريخيّة محضة وأفق فنّي مُنفتح على مناخات الحداثة والتحديث.

فلا ريب في أنّ السائح يندهش بحجم المئذنة التي يصل ارتفاعها إلى حوالي 210 أمتار، ويقع المسجد على مساحةٍ تبلغ 9 هكتارات وفيه قاعة صلاة تبلغ مساحتها 20 ألف متر مربع إلى جانب فضاءات أخرى تابعة للمسجد، أهمّها التي تمّ استحداثها في الـ10 سنوات الأخيرة، كاستحداث أكاديميّة الفنون التقليدية التي تضم مجموعة من الدورات التأهيلية الخاصة بالجبس والزلّيج والحجر المنقوش وصياغة المُجوهرات وغيرها، ما يجعل المسجد يضطلع إلى جانب الهاجس الدّيني بالدور التكويني الذي يُعيد إعطاء قيمةٍ أكبر للعمارة العربيّة الإسلامية والعناصر الفنّية والجماليّة، والتي تُساهم في تتويجها وخلق جماليّاتها، من دون اللجوء إلى أيّ نماذج وابتكارات من التصاميم الغربيّة.

ولعلّ هذا التشبث بالحضارة نسقاً وتفكيراً وهندسة جعله من روائع المساجد الموجودة في العالم، والتي تتميّز باستقلالية كبيرة، ذلك أنّ المسجد يتجاوز البُعد الدّيني، عبر إبراز الجانب الحضاري والفنّي وبراعة الحرفيين المَغاربة في صناعة صرح معماريّ قويّ ومُتماسكٍ.

ويتميّز معمار مسجد الحسن الثاني بقدرة هائلةٍ على خطف عيون الناظرين، بعدما شيّده ميشيل بانسو على جانبين، الأوّل من جهة اليابسة عبارة عن مدخل جماليّ مُزيّنٍ بأبوابٍ مُزركشةٍ وأقواسٍ منقوشةٍ ذات دلالاتٍ تاريخيّة. أمّا الجانبُ الآخر فقد تمّ تأسيسه وسط البحر، حيث أمواج الأطلسي تتلاطم على جدار المسجد بطريقة ترجّ الأجساد وتمنحها شعوراً مُذهلاً لحظة اشتباك الموج وهيجان البحر. وذلك على مدى شاسع يخترق عباب الفراغ، حتّى تبدو المئذنةُ وكأنّها تُلامس زرقة السماء. ورغم الهاجس التاريخيّ المُتمثّل في محاكاة الحضارة العربيّة الإسلامية من النّاحية المعمارية والزخرفية، فإنّ المُصمّم الفرنسيّ قد فطن مُبكّراً إلى النزوع التحديثي في المَسجد بطريقةٍ تجعله مسايراً للتطورات التي تشهدها المباني التاريخيّة حول العالم.

باختصار

يُعطي مسجد الحسن الثاني انطباعاً أوّلياً حول ضرورة وأسباب تشييد تحفةٍ معماريةٍ تحرس المدينة وتُرمّم هواجسها السياحية

■■■

صمّم مسجد الحسن الثاني المُهندس المعماري الفرنسيّ الشهير ميشيل بانسو وهو من أبرز المُصمّمين الذين عاشوا بمدينة الدار البيضاء

■■■

لا ريب في أنّ السائح يندهش بحجم المئذنة التي يصل ارتفاعها إلى حوالي 210 أمتار

وأخيراً

فلج زهران القاسمي

محمود الرحبي

لم تكن الأفلاج العُمانية مادة رئيسة للسرد الحديث، مع وجود مقتبساتٍ شعريةٍ كلاسيكية كثيرة وشواهد متعددة وأخبارٍ وقصص وحكايات متنوعة عن الأفلاج ومياهها. مثلاً، حين يسمّي الشاعر الفلج نهراً، ويضفي عليه ما للنهر من جريان وهدير وسعة، هي في الأساس سعة الخيال والحلم، مثل الشاعر هلال بني عرابه الذي خلع على فلجه لقب «أبا خالد»، علامة على أزليّة جريانه، ولكنه رغم ذلك المديح فاض وهدم بيته وخرب بقعته وهو غائب، فخاطبه معاتباً:

أبـا خالدٍ ظَنّي لتحفظَ غيبتي/ وقد خابَ ظَنّي خيبةً إثْرَ خَيْبَةِ
تطوفُ بنا ليلاً كمِثْلِ عَدُونا/ وقَعْوَسْتَ داري ثم خَرّبتَ بُقْعَتي

تستفيد رواية الشاعر العُماني، زهران القاسمي، «تغريبة القافر» من مكوّنات الأفلاج العمانية القديمة وحياتها. والفلج شقّ مائي معقد يغور جزء منه تحت الأرض، ويصل هناك إلى طبقات غاية في العمق، مثلاً فلج دارس القريب من قلعة نزوى الشاهقة، الذي، في إطار ما يمكن تسميتها عبقرية هندسية عرف بها الأجداد، حفر له عمق يوازي ارتفاع القلعة، وكأنما السر المضمر من ذلك أن الارتفاع الظاهر للقلعة يوازيه عمقٌ شبيه تحت الأرض، الأمر الذي جعل منظمة اليونسكو تختار فلج دارس التاريخي، وبسبب هذه التكوينات المعقدة، ضمن الآثار العالمية، مع الفرق أن هذا الإرث حيّ ومياهه جارية منذ الأزل، اختارته «اليونسكو» أو لم تفعل، وسواء اكتشفنا سرّه أو لم نكتشف.

تنشغل رواية القاسمي بطريقة شقّ الأفلاج العُمانية القديمة، من خلال حبكة أفقية للبطل الذي سقطت أمه في البئر وقت ولادته. ولذلك صار قفّاراً (قافي أثر) للماء. وفي هذا السياق، أتذكّر مقطعاً شعرياً للشاعر العُماني المقيم في المغرب، عبد الله الريامي، من مجموعته الشعرية الأولى «فرق الهواء»: لأني ولدت في يوم ماطر فقد عشت دائماً كالغريق... وقافر زهران القاسمي، الذي ولد في يوم ماطر، عاش كذلك باحثاً عن أثر الماء تحت الأرض.

قبل أيام، كنت أمشي مع قريب لي (هلال البوسعيدي) في ولاية منح، وهو من سكانها، وفجأة قال لي أن أتوقف فتوقفت، ثم سألني: هل تعرف ماذا تحت قدميك؟ أجبت: التراب والحصى. فضحك، وهو يجيب: يوجد فلج نشيط. والمعنى أن ماءً جارياً يوجد تحت رجلي من دون أن أشعر به، والمعنى أيضاً أن الأجداد شقّوا ذلك الطريق تحت الأرضي، والذاهب بعيداً في مساحاته، متحدين الظلام والطمي والصخور من أجل تسريح طريقٍ للماء الذي اكتشفوا نبعه في تلك الأعماق.

> رواية تنشغل بطريقة شقّ الأفلاج العُمانية، من خلال حبكة أفقية للبطل الذي سقطت أمه في البئر وقت ولادته

وفي لحظات الفيضانات، تكون الأفلاج أولى هذه الضحايا، حين تطمرها السيول ولا تبقي لها من أثر. لذلك يأتي دور القافر، كما فعل زهران في روايته، لكي يبحث عن هذه الآثار المطمورة. وقد استطاع من خلال روايته البيئية، الخصبة، أن يعرّفنا بطرق شق الأفلاج وتلك المعاناة التي يعانيها القرويون مع العطش والتعلق بالأمل في اكتشاف الآثار المطمورة. وقد جعل من روايته مناسبة للتعريف كذلك بمفردات قديمة في اللهجة العُمانية وأسماء الناس وأحوال معيشتهم في ذلك الوقت، غالباً فترة الأربعينيات وما قبلها.

قرأت في أثناء قراءتي «تغريبة القافر» كتاب أحمد الفلاحي «بطين» (400 صفحة)، وهو عن أعلام قرية كاتبه الصغيرة، بطين، وأغلبهم من عائلة الفلاحات، ولكن جانباً كبيراً من الكتاب عن الماء، وخصوصاً النزاع بشأن الأنصبة من مياه الفلج، وتلك المعاناة التي يعانيها الأهالي ما إن ينضب معين هذا الفلج، الأمر الذي يدفع بعضهم إلى ترك قراهم، والذهاب إلى قرى أخرى يكون فيها ماءٌ، وأفلاجها جارية. ولكن ما إن تعود الحياة إلى فلجهم الأصلي، حتى يعودوا أدراجهم إلى مراتعهم الأولى، وكأن معاناةً لم تكن، ويحتفلوا بطريقتهم.